(2)

حق التشريع

نـزل القرآن الكريم للقضاء عـلى نفوذ الكهنة والأحبـار التي استمدت سلطتها من التحدث باسم الإله، وليس لاستبدالها بنفوذ جديد لرجال الدين، فالإسـلام لا يعرف الوساطة الإنسانية في الاتصال بالله، ولا الوساطة الإلهية في تفاعـل الإنسان مع الكون، واحتفظ الله بحق التشريع لذاته، وأنكر أن يكـون لأي رجل من رجال الدين حقًـا في تحريم أو إيجاب، وجعل مثل هذا الادعاء سببًا للإشراك به، وجعل الذين يتبعون هذا الصنف من رجال الدين كمـن اتخذ أربابا مـن دون الله، ليس لاعتقادهم أنهم آلهـة العالم -بل المراد أنهم أطاعوهم في أوامرهم ونواهيهم.

ومـن الآيـات التي تنكر هذا الصنيـع، وتراه متناقضا مع مـراد الله قوله تعـالى ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾ [الأعراف: 32]، ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعـراف: 33]، ﴿ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنعام:151]، ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا

يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: 31]، وروى الرازي في تفسيره للآية أن عديا بن حاتم وكان نصرانيا دخل على رسول الله ﷺ وهو يقرأ سورة براءة فوصل إلى آية ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ قال: فقلت: لسنا نعبدهم. فقال: أليس يحرمون ما أحلّ الله فتحرمونه؟ ويحلون ما حرّم الله فتستحلونه؟ قلت: بلى. قال: فتلك عبادتهم.»[1]

وحصر القرآن الكريم سلطات الأنبياء والمرسلين في الإبلاغ والبيان لما نُزِّل إليهم من وحي، ليس لهم سلطان على الناس، وأنهم لا يملكون لأنفسهم أو لغيرهم من الناس نفعا ولا ضرًّا، فالأنبياء ليس لهم علم بالغيب ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ ﴾ [الأعراف: 188]، ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ﴾ [الكهف: 110]، ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ۖ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ [ق: 45]، ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ [الغاشية: 22]، ﴿ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ ﴾ [الشورى: 48].

إذا كانت تلك سلطة الأنبياء فكيف يثبت لرجال الدين ما لم يثبت للأنبياء. فالقرآن الكريم أنكر على أقوام قالوا برأيهم هذا حلال وهذا حرام، ووصف صنيعهم بالكذب واتباعه بالشرك، ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ ﴾ [الشورى: 21].

وأرى أننا أمام مقدمة أولى تجعل التشريع الديني حقا إلهيا لا يقترب منه الإنسان في تعريف الله بنفسه عقيدة، وفي طريقة الاتصال به عبادة. وهنا

(1) فخر الدين الرازي، التفسير الكبير، ج3، ص31.

يتفـق النيسابوري والرازي ومحمد عبده وخلـف الله مع الخطاب الظاهري السلفـي إلا أنهم سرعان ما يفترقون عنه في المقدمة الثانية التي تجعل الإنسان مشرّعـا بمقتضى تفويض الله له في أموره الدنيوية المسكوت عنها من الوحي قطعي الثبوت قطعي الدلالة.

فنحـن أمام ديني ثابت يُشرّع فيه الله للإنسان، ودنيوي متغير يُشرع فيه الإنسـان بمقتضى تفويض الله له، فدائرة التشريع الإلهي التي لا يتدخل فيها الإنسـان مقيدة بدائـرة العقيدة والعبادة؛ لأنها تتعلـق بذاته حقيقة، فتكون العقيدة، وطريـق اتصال الإنسان بالله فتكون العبـادة، «العقيدة إنما تدور حـول ما هـو ثابت أزلي خالد وهـو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ذاتـه وصفاته. و إن الحياة الدينية باعتبارها عبادات إنما تتم على الوجه الذي أراده الله منّا، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الذي نسخ بعـض العبادات في الأديان السابقة، وجاء بخير منهـا في الإسلام.»[1] و يدخل فيها ما جاء من نص قطعي الثبوت والدلالة في المعاملات.

وما يتعلق بالإنسان في علاقته بالحياة سكت الله عن تفاصيله ليس نسيانا ولا قصـورا بـل قصدا لطبيعـة الإنسان المتأثـرة ببيئته زمانـا ومكانا وتطور أفكـاره نتيجة خبرات متنامية بالحياة وكشـف أسرارها، فالإنسان في حركة دائمـة وتفكير مستمر بدافع الحاجة والمصلحة، غاية ما تدخل فيه الوحي في هذا الجانـب هو وضع مبادئ عامة. «فالحياة المدنية أو المعاملات، إنما تتغير لارتباطهـا بالإنسـان، والإنسان غير أزلي ولا خالد، و إنمـا متغير..»[2] وتغير

(1) د. محمد أحمد خلف الله القرآن والدولة، ص33، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.
(2) السابق، ص33.

المجتمعات البشرية المستمر دفع الأصوليين أنفسهم لوضع قاعدة تقول بتغير الأحكام تبعا لتغير الأزمان.

وقد يُقال لماذا لا يكون التشريع الإلهي شاملا لكل نواحي الحياة؛ لتكون الحاكمية لله بفهم المتدين الظاهري في قراءة آيات مثل «إن الحكم إلا لله»، ولتكون شمولية الإسلام المستوعبة لكل تفاصيل الحياة بما في ذلك الدولة؟؟

وأرى أن هذا الفهم الحرفي المغلوط لفكرة شمولية الإسلام لكل تفاصيل حياة الإنسان هو محاولة لصبّ الحياة عبر مسيرتها الطويلة في قالب واحد حتى تطابق رؤية الإسلام لتفاصيل الحياة، وهذا لا يستقيم وحيا ولا عقلا؛ لأنها محاولة لتثبيت المتغير، وتجميد المتحرك وهو الحياة؛ لذا اكتفى الوحي من علاقة الإنسان بالدنيا (الكون) بالمبادئ العامة التي تحمى كل منهما من الآخر، فعلاقة الإسلام بالدنيوي مجموعة من القيم مثل العدل والمساواة والحرية التي تتشكل في آليات متطورة تبعا للإنسان، وهذا يتسق مع خصائص الإسلام القرآني في عشرات الآيات القرآنية التي قدّمت الإسلام بوصفه ديانة إنسانية عالمية واقعية (قابلة للتطبيق)، إذ كيف للثابت وهو الدين أن يُجاري تفاصيل المتغير زمانا ومكانا وهو حياة الناس إذا لم يكن ذلك في منظومة القيم وحدها!!

كون الإسلام ديانة عالمية يتطلب أن تكون رسالة الإسلام فيما يتعلق بحياة الإنسان مبادئ عامة لتحتفظ بالمرونة التي تجعلها صالحة للناس في كل زمان ومكان.

وعلاقة العرب بالإسلام في مسيرته لا تتجاوز نقطة البداية، فمنهم وقع اصطفاء الله لمحمد بن عبد الله ﷺ ليكون نبيا رسولا، فارتبط الإسلام في

ظهوره بأمة العرب ثم سرعان ما انتقل إلى غيرهم، فالإسلام لا يرتبط بعنصر بشري، وتقاليد العنصر البشري المكتسبة من بيئته ليست جزء من الدين..

وكونه أيضا ديانة إنسانية يجعل غايته المتجددة العمل من أجل صالح البشرية، وهدفه الدائم تحقيق الخير العام للإنسان في أي أرض يكون، وفي أي زمن يُوجد.

وقابلية الإسلام للخلود بوصفه خاتم الرسالات تقتضي قابليته للتطبيق العملي؛ لذا اقترن الإيمان والعمل في القرآن الكريم في عشرات الآيات القرآنية، فالإيمان هو الطاقة الروحية الدافعة إلى العمل الصالح الذي لا يكون صالحا إلا إذا ارتبط بقيمة روحية داخلية إرضاء الله، وخارجية تحقيق الخير للجميع وتقديم الصالح العام على المصلحة الفردية.

ويعلق خلف الله على تفسير الأستاذ محمد عبده[1] لقوله تعالى

(1) يقول الأستاذ الإمام في تفسير «لتكونوا شهداء على الناس» هم أهل العدل والإنصاف الذين يؤيدون الحق بالشهادة لأهله بأنهم محقون، ويشهدون على أهل الباطل أنهم مبطلون. ودرجتهم تلى درجة الصديقين. والصديقون شهداء وزيادة. والشهادة التي تقوم بها حجة أهل الحق على أهل الباطل تكون بالقول والعمل والأخلاق والأحوال. فالشهداء هم حجة الله تعالى على المبطلين في الدنيا والآخرة، بحسن سيرتهم وتقدم القول في ذلك... ويروى عن سيدنا علي أنه قال: إن الأرض لا تخلو من قائم لله بالحجة.»، ويتوهم أسرى الاصطلاحات، ورهائن القيود المستحدثات، أن حجج الله تعالى في الأرض هم علماء الرسوم حملة الشهادات، الذين حذقوا النقاش في العبارات، والجدل في مصارعة الشبهات، وجمع النقول في تلفيق المصنفات، كلا إن حجج الله تعالى من الناس هم أعلام الحق والفضيلة، ومثل العدل والخير، فمنهم العالم المستقل بالدليل وإن سخط المقلدون، والحاكم المقيم للعدل، وإن كثر حوله الجائرون، والمصلح لما فسد من الأخلاق والآداب وإن غلب المفسدون، والباذل لروحه حتى=

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ ﴾ [البقرة: 143] بأن الآية شاهد على ضرورة صلاحية الإسلام للتشكّل في الواقع، فالآية واضحة في «أن التغيّرات الجذرية في المجتمعات البشرية لا تتقرر، ولا تستقر، ولا يُصبح لها كيان ووجود، ما لم تكن هناك نماذج بشرية تُحقق هذا الكيان، ويقتدى بها الناس.

لابد من وجود نماذج بشرية يتمثل فيها بصورة حسية المبدأ والعقيدة. فهي تمارس الحياة العملية على أساسٍ مما هناك من معتقدات دينية، ومبادئ أخلاقية، وقيم اجتماعية.»[1]

والآية تمثل لنا مستويين من هذه النماذج.

المستوى الأول: هو محمد بن عبد الله عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، ذلك النبي الرسول الذي يُمارس الحياة الدينية، والحياة العملية، على أساسٍ مما يدعو إليه من عقيدة ونظام، والآية تُعبر عن ذلك بقوله تعالى: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ ﴾.

والمستوى الثاني: هم جماعة المسلمين الذين آمنوا بما جاء به محمد عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وعملوا بمقتضاه، واتخذوا من محمد عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ نفسه القدوة

= يقتل في سبيل الحق وإن أحجم الجبناء والمراؤون.. و(الصالحون) هم الذين صلحت نفوسهم وأعمالهم ولم يبلغوا أن يكونوا حججا ظاهرين كالذين قبلهم؛ لأنه ليس لهم من العلم والعمل المتعدي نفعه إلى غيرهم ما يحتج به على المبطلين، والجائرين عن الصراط المستقيم، وقال الأستاذ الإمام: هم الذين صلحت أعمالهم في الغالب، ويكفي أن تغلب حسناتهم على سيئاتهم وألا يصروا على الذنب وهم يعلمون.. ينظر: تفسير المنار، ج2، ص140:142

(1) القرآن والدولة، ص40.

والمثـال، والآية الكريمة تُعبّر عـن ذلك بقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ فالبشرية تتخـذ من أتباع محمد عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ المثال الذي يُضرب، والقدوة التي تُحتذى، في كـل من الإيمان بالله، والعمل من أجل الصالح العام. وأتباع محمد عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أو المسلمـون، يتخذون منه هو القدوة والمثال. ولفظ شـهيد وشـهداء، هي التـي تفيد هذه المعاني. إن الشهيد هنا بمعنى الشاهـد، فهو فعيل بمعنى فاعل. والشاهـد هنا هو الذي يشهد على صحة ما يدعو إليه بتمثله، وممارسة الحياة عـلى أساس منـه. إنه حين يمـارس، وينجح في الممارسة ويحقـق الخير يكون بتصرفـه هذا محققا لمعنى الشهـادة، ويتبعه الناس فيما يقـول ويقلدونه فيما يفعل.»[1]

(1) القرآن والدولة، ص41، 40.